

مكتبة الإسكندرية

المنتخبات

لكونفوشيوس



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب



د. يُمْنى طريف الخولى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

18

C7

النتخابات لكونفوشيوس

المتخبات

لكونفوشيوس

د. يُمْنى طريف الخولى



مهرجان القراءة للجميع ٩٤ (مكتبة الأسرة) تراث الإنسانية

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلي

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعي والفني

محمود الهندي

مراد نسيم

أحمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

المنتخبات لكونفوشيوس

د . يُمْنى طريف الخولى
أستاذة الفلسفة المساعد بآداب القاهرة

فى حضارة الصين :

حضارة الصين من أعرق وأثرى حضارات العالم طرا ،
شكلت واحدة من أقدم المهنيات وأرقاها ، لا تضارعها
الا حضارة مصر الفرعونية المبهمة . ففى القرن السابع
عشر قبل الميلاد ، بينما كان البرابرة يسكنون بلاد الاغريق
وأوربا لا تزال فى مراحل الهمجية ، كانت الصين تعيش
فى اطار سلطات سياسية ونظام اجتماعى متماسك ، يحكمه
الالتزام بأخلاقيات قوية ، تسجل قصائد الشعر ونصوصا
من الفكر العميق يعلو الى مدارج الفلسفة الواقعية والمثالية
معاً ، تشهد حفلات الرقص والغناء ، وبراعة ملحوظة فى
الفنون التشكيلية - خصوصا فن الخزف و « الصينى » .
لم تكن حضارة الصين آنذاك دولة متحدة ، بل مجموعة

دول متصارعة • كل دولة تحاول التوسع على حساب الأخرى ، فضلا عن انقسامها الى ولايات أو اقطاعيات • وقد بلغ عددها سبع عشرة دولة ، ثم أسفرت عن سبع دول كبرى • وكديدن المجتمعات البشرية الأولى ، تكونت جميعها ابتداء من الاستقرار الزراعى على ضفاف الأنهار ، ثم امتصاص أقوىاء الزراع لجهود ضعافهم وصغارهم ، ثم اندماج كل منها تحت رياسة رجل مقتدر أو زعيم ، يدينون له بالولاء ، ليكفل الأمن والنظام ، ويضمن الحقوق والواجبات ، ويفض المنازعات ، ويضطلع برد هجمات المغيرين • شهدت هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الصين فترة « الدول المتحاربة » التى تعد العصر الذهبى للفلسفة الصينية ، اذ تميزت بحركة تعليمية واسعة ، ونشاطا فكريا متوهجا ، والعديد الجم من المفكرين يجوبون مختلف الدول أو الولايات الصينية للمناظرة فيما بينهم ، ولعرض الخدمات والنصائح والتعاليم على هذا الحاكم أو ذاك • ومن هؤلاء المفكرين الجوالين فى ربوع الصين آنذاك فيلسوفنا كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق م) • وقد انتهت فترة الدول المتحاربة عام ٢٢١ ق م حين تم القضاء على الاقطاع والاقطاعيات ، وتوحيد الصين تماما •

وعلى الرغم من اتساع رقعة بلاد الصين ، التى تقترب من مساحة القارة الأوربية - أى حوالى عشرة ملايين

كم ٢. (*) ، ومن تعدد أصول الأعراق التي تسكنها ، فإن موقعها الجغرافي في الركن الجنوبي الشرقي من قارة آسيا جعلها تستمتع بعزلة نسبية ، كفلت لها الاحتفاظ بشخصية حضارية متميزة المعالم على مدى تاريخها الطويل .

يتوغل تاريخ الصين المسجل والخاضع للدراسات العلمية الى ما يقرب من عشرين قرنا قبل الميلاد . أما تاريخها الأسطوري - حيث دور الخيال الخصيب أضعاف مضاعفة لدور الواقع والوقائع - فيجتاح الى ما يزيد عن سبعين أو ثمانين قرنا قبل الميلاد . وفي هذا المجال التاريخي الفسيفسائي ، سميت الصين - كما يقول ول ديورانت - جنة المؤرخين ، لأنها ظلت آفا من السنين ذات مؤرخين رسميين ، يسجلون كل ما يقع ، وكثيرا مما لا يقع ، ومن أساطير لا تتوقف الا عند بدء الخلق ! يقول ديورانت :

« ومن أقوالهم في هذا أن (يان كو) أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالي عام ٢٢٩٠٠٠ قبل الميلاد ، بعد أن ظل يكبح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التي كان يخرجها في أثناء عمله فكانت رياحا . وسحبا ، وأضحى صوته رعدا ، وصارت عروقه أنهارا ، واستحال لحمه أرضا ، وشعره نباتا وشجرا ، وعظمه معادن ، أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه

(*) مساجة الصين بالتحديد ١٢٠٠٧٥٩ كم ٢ .

فأصبحت آدميين • وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما نعقب
به هذا العلم الكونى العجيب ! (١) •

ثم تستأنف الأساطير المسار التاريخى للضين بالملوك
الأولين الصالحين ، الذين جاهدوا ليجعلوا من قمل يانكو
خلائق متحضرين ، حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام !
يتلوهم رجيل - أكثر معقولة - يعرفون باسم الأباطرة
الخمسة ، منذ حوالى القرن الرابع والثلاثين ق.م • أولهم
فوهسى البطل الثقافى الأسطورى خالق الفلسفة والمعرفة
ومبتكر المتواليات ذات الخطوط أساس الميتافيزيقا
الصينية ، ثم شين فونج ، وهوانج تى ، وياو ، وتشو •
يعدهم كونفوشيوس نفسه مصدر الحكمة ، خصوصا تشو
الذى يمتدحه كتاب «المنتخبات» وكأنه اله • وهذا تصور
يرد كثيرا فى حضارات آسيا وأيضاً أفريقيا ، أى الملك
المقدس فى العهود الغابرة السحيقة ، ذى القدرة الأسطورية
التي تحكم وتسوس كل شىء فى الأرضين ، حتى أن آخرهم
تشو هو الذى أرسى دعائم النظام فى كل رجبى من أرجاء
المعمورة ، فقط بمساعدة خمسة من الخدم (٢) • ان

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المجلد ١ ، ج ٤ : الصين ،
ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٣ ،
١٩٦٦ • ص ١٤ - ١٥ •

The Analects of Confucius, trans. by Arthur (٧)
Waley, Vintage Books, New York, from Introduction
by A. Waley, p. 17-18.

كونفوشيوس لا يعتبر نفسه مبدعا ، بل فقط هو حافظ .
ومواصل لمسار هؤلاء لاسيما تشو . وبصفة عامة ، يعتبر
الصينيون أولئك الأباطرة الخمسة بمثابة أنصاف آلهة .
اذ . يعتقدون أنهم هم الذين أخرجوا البشر تماما من وضع
الوحوش الضارية ، وعلموهم أصول المدنية وأركان
الحضارة ، فكشفوا لهم الزراعة وأدواتها وصيد الأسماك
بالشباك ونسج الحرير وارتداء الملابس والزواج والاكل
بالعصى والموسيقى والتصوير والكتابة والمركبة والعجلات
... الخ .

وعلى مشارف القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد يبدأ
حكم الأسر فى تاريخ الصين بأسرة هسى (٢٢٠٥ - ١٧٦٦
ق م) . تتلوها أسرة شانج أوين (١٧٦٥ - ١١٢٣ ق م)
لتكون أول وأقدم ما تؤيد الحفائر والسجلات التاريخية
المكتشفة . تلتها أسرة « تشو » التى أسفر تحليلها عن
الاقطاعات وانبعث حكم الاقطاعيين فيما يعرف بفترة الربيع
والخريف (٧٢٢ - ٤٨١ ق م) . تمخض الاقطاع عن
فترة الدول المتحاربة - المذكورة آنفا (٤٠٣ - ٢٢١ ق م) ،
حتى استبظعت أسرة تشين (٢٥٥ ق م - ٢٠٧ بعد الميلاد)
توحيد الصين تماما فى ظل سلطة مركزية . أعقبتها أسرة
هان ، ثم عصر الانشقاق (٢٢١ - ٥٨٩ م) . حين خضعت
الصين للحكم عدة أسر ، حتى انفردت أسرة سوي بالحكم
(٥٩٠ - ٦١٧ م) . وتعاقب على حكم الصين العديد من
الأسر المتوالية ، وصولا الى قرننا العشرين . وفى عام

١٩١١ م هبت ثورة عارمة بقيادة « صن - يات - سن » زعيم حزب الكيومنتانج ، أعلنت الجمهورية بعد أن اقتلعت حكم آخر الأسر ، وهي أسرة تشينج ذات الأصل المنشوري التي حكمت البلاد منذ عام ١٦٤٤ م وحتى عام ١٩١١ .
بدأ عهد الكيومنتانج ، وكانت الصين قد بلغت أحط درجات الركود والجمود والتخلف والفقر ، حتى قضى عليه الحزب الشيوعي وتولى حكم البلاد في أكتوبر ١٩٤٩ (٣) .

بهذا التحول الثوري بدأت حضارة الصين مرحلة جديدة تماما ، متأصلة بجذورها العميقة . توالى التطورات المذهلة نحو النهوض والتحديث والتصنيع والاصلاح الزراعي والاداري والتسليح ورفع مستوى المعيشة للمواطنين والعدالة الاجتماعية ، والاستقلال السياسي في اتخاذ القرار ، وعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى ، مع الحرص على مد يد المساعدة للآخرين خصوصا في المجالات التقنية (التكنولوجيا) فأصبحت الصين الآن قوة عظمى يحسب لها ألف حساب . ولحظة كتابة هذه السطور - في صيف ١٩٩٤ - تسجل الصين أعلى معدلات التنمية في العالم ، ١٣ر٤ ٪ . وكما هو معروف ، توميء كل المؤشرات الى أن الصين - منطقة شرق آسيا على العموم ، سوف تتبوأ السؤدد الحضاري في المرحلة القادمة ، مثلما كانت

(٣) فؤاد محمد شبل ، حكمة الصين ، ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ . ص ١٧ : ١٩ .

فى ذلك الزمان البعيد ، حيث يدور موضوعنا ، وهو كتاب
(المنتخبات Analects) المأثورة عن كونفوشيوس .

كونفوشيوس والتراث الصينى :

فى هذا التاريخ الطويل العريض يتربع كونفوشيوس ، بوصفه أهم شخصية فى تشكيل الوعي الصينى ، وأقدر من استطاع تمثيل سيمائه وقيمه العريقة الممتدة على مسار الزمان وأصول الطقوس والشعائر ، حاملا التقاليد والأعراف أو الهيئة الحضارية الصينية . هذا فضلا عن « امتداد تأثيره الى الهند الصينية واليابان وكوريا والبلاد التى تعرف الآن باسم فيتنام » (٤) . ولا يوجد من يضاهى كونفوشيوس فى مثل هذا التأثير العارم والفريد ، ولا فى قدرته على تجسيد الشخصية الصينية ، فى ابداعه وفى تدريسه وفى تفسيره لتراثها . لذلك يكاد يكون المثل الرسمى لهذه الحضارة العتيقة فى عراققتها وفى أصولياتها . وينظر اليه أهل الصين نظرة المؤمنين الى أنبيائهم الذين حملوا لهم رسالة الحق والفضيلة والطريق القويم الى الظفر فى الدارين . وحاكوا الأساطير حول مولده وحول صفاته . فيقال ان الصينى قد يعتنق الطاوية أو البوذية أو المسيحية أو الاسلام ، لكن يظل فى جوهره كونفوشيا .

The New Encyclopedia Britannica, Vol. III, (٤)
p. 78.

وحيث استولى الشيوعيون على الحكم عام ١٩٤٩ وامسكوا بدقة الأمور ، استبعد ماوتسى تونج الكونفوشية تماما بوصفها طبقية رجعية محافظة ، لتنفرد الفلسفة الماركسية بالميدان . ولكن بعد سنوات قليلة ، في منتصف الخمسينيات سرعان ما اتضح أن هذا مضاد لطبائع الأمور الصينية . فعاد طلبة الفلسفة إلى دراسة تعاليم كونفوشيوس بجانب الماركسية . وتم ترميم معبد كونفوشيوس القديم (٥) ، وهو قبره بمدينة تشنغ - فو ، بولاية شانغتونج . ولا غرو فليس ثمة مبالغة في القول أن الصين هي بلاد الكونفوشية (٦) .

كل هذا ، على الرغم من أن كونفوشيوس لم يأت من فراغ ، ولا يمثل نقطة بدء ، بل شهدت الصين قبله نفرا من فلاسفة عظام مبدعين حقا . وقد أسفر تراثها القديم السابق على كونفوشيوس عن خمسة مصنفات هامة ظلت تتمتع بالتوقير والتبجيل ، وتعرف باسم الأدبيات أو الكلاسيكيات الصينية الخمس .

لكن كان كونفوشيوس هو الذي قام بتجميعها وتصنيفها وتبويبها والتعليق عليها ، أو ما نسميه الآن أعدادها للنشر .

(٥) كارل اسكلوند ، جولة في الصين ، ترجمة عمر الاسكندري ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د٠ ت ، ص ٥٨ .

(٦) Ch'u Chai & Winberg Cha. Confucianism (٦) Barron's Educational Series, New York, 1973, p. 2.

وهذه الأسفار الخمسة هي :

أولا : كتاب الأغاني . حيث جمع كونفوشيوس ثلاثمائة وخمس من الأغنيات والتواشيح ، قيلت على مدى ألف عام ، وتمثل العقائد والطقوس والأعراف والتقاليد ، وأيضا المشاعر . كهوم الحب ومتاعب الحرب .

ثانيا : كتاب التاريخ ، الذى يعد سجل خطب وأقوال الحكام منذ العهد الأسطوري ، حوالى ثمان وخمسين قطعة أو وثيقة ، وضع كونفوشيوس مقدمة لكل منها تبين ظروفها ، وتعتبر هذه القطع أو الوثائق بمثابة نماذج لنصح الحكام .

ثالثا : كتاب الطقوس ، الذى يضم نصوصا تغطى مجالات تبدأ من الفلسفة العميقة وتنتهى بأنماط الحياة اليومية . وقد أصبح هذا الكتاب محكا لأداب السلوك . ويلحق به كتاب خاص بالموسيقى .

رابعا : حوليات الربيع والخريف ، وهو سجل مختصر لأحداث دولة لو - مسقط رأس كونفوشيوس وموطنه الأصلي - فيما بين عامى ٧٢٢ - ٤٨١ ق.م .

خامسا : كتاب التغيرات ، وهو يحتاج لوقفه خاصة . اذ بينما تخوض الهند الى آخر المدى فى الميتافيزيقيات وعوالم الأديان المطلقة ، تتميز فلسفة الصين بمنحى عملى وضعى ونزوع أصيل نحو هذا العالم الانسانى ،

وعزوف عن المجردات والغيبيات . وسوف نرى الى
أى حد تجسد فلسفة كونفوشيوس هذه النزعة
الانسانية .

من هنا يحتل كتاب المتغيرات مكانة فريدة فى التراث
الصينى ، لأنه يكاد يكون اسسهمهم الوحيد فى غياهب
الميتافيزيقا . يقال ان الامبراطور الأسطورى فوهسى - أول
الأباطرة الخمسة هو الذى وضعه عام ٣٣٢٢ ق م ، ويقال
بل ان واضعه هو الملك الفيلسوف ون - وانج مؤسس
أسرة تشو الملكية ، التى حكمت فيما بين عامى ١١١٢ - ٣٥٦
ق م . ولعل ثمة أقوالا أخرى . لكن الثابت أن
كونفوشيوس قد حققه ، ووضع له حواشى وتعليقات .
أو كما يسميها الصينيون (أجنحة) .

يبدو هذا الكتاب وكأنه فى التنجيم والكهانة
والعرافة . ولكنه أولى المعالجات العميقة لفلسفة التغير
والصيرورة ، التى تسبق معالجة هيراقليطس . تقوم على
أساس أن التغير هو القوة المبدعة فى هذا الوجود ، يجرى
فى مجراه الوطيد وفقا لسنن ثابتة . انه نظام كونى ،
لا بد أن يتوافق الانسان معه .

وعن طريق « خطوط متوالية » يرسم هذا الكتاب
الصغير صورة مفرطة التجريد والتعقيد والالغاز لجوهر هذا
التغير الذى يقوم على عاملين ، ايجابى وسلبى - هما اليانج
والين ، اللذان لعبا دورا هاما فى الأنطولوجيا الصينية .

فيطرح الكتاب تصورا ميتافيزيقيا شاملا للكون . ينتهي
مع كونفوشيوس الى الفضائل الخمس الثابتة : المحبة
والعدالة والاحتشام والحكمة والحق (٧) .

والغريب حقا أن جهود كونفوشيوس التدوينية
أنصبت على هذه الكلاسيكيات الخمس ، ربما لأنه كان
يستخدمها في تعليم تلاميذه وتثقيف مريديه . أما الفلسفة
الكونفوشية الخاصة به فقد كان ينزع في بسطها نفس
المنزع السقراطي ، أي التلقين الشفاهي وبثها حية في
نفوس تلاميذه ومريديه .

من هنا دون تلاميذه كتاب (المنتخبات) بعد
وفاته (*) . فكان مجموعة فقرات متفرقة ومستقلة قصيرة ،
اطولها نسبيا الفقرات الثلاث الأخيرة - في الكتاب
العشرين . وهي في مجموعها حوالي خمسمائة فقرة ، أكثر
من نصفها يبدأ بالعبارة : « قال المعلم » ، وبعضها أقوال
لتلاميذه ، أو أقاصيص تروى ليستخرج منها الحكمة ، وفي

(٧) فؤاد شبل ، حكمة الصين ، ص ٢٤ وما بعدها . و :

Chai, Confucianism, op. cit., p. 8-18.

(*) دونوا عنه أيضا (التعاليم الكبرى) وجمع حفيده كتاب
(عقيدة الوسط) . لكن هذين الكتابين يعدان غصليين من غصول كتاب
(الطقوس) . من هنا كان (المنتخبات) أهم الأعمال الثلاثة الماثورة
عن كونفوشيوس .

١٠ : هالة أبو الفتوح ، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ، رسالة
ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة . ١٩٩٠ ، ص ٤٨ : ٥٦) .

الصدارة ثمة الأقايصيص المروية عن الملوك والأباطرة الأولين الصالحين . وقد انتظمت جميع الفقرات في عشرين كتابا ، أو بالأحرى عشرين فصلا قصيرا غير مصنفة أو معنونة ، اكتفاء بالترقيم (الكتاب الأول .. الكتاب الثاني ، الكتاب الثالث ، الرابع ... الخ) .

هذه الفقرات هي صلب وجوهر الفلسفة الكونفوشية الباقية على مدار خمسة وعشرين قرنا من الزمان ، والتي سنعرض لها الآن . ومع تعدد جوانبها المتشابكة مع مجمل التراث الصيني ، فإنها تدور أساسا حول الأخلاق وتهتم كثيرا بالسياسة . وعلى الرغم من هذا ، ومن أن مهمة أو عمل كونفوشيوس أساسا تدريب أبناء الطبقة الراقية - ومن يريد أن يحذو حذوهم - على الخصال الفاضلة كي يؤهلهم للمشاركة في الحكم ، « فان كونفوشيوس لا يعد مربيا أو معلما أخلاقيا ، بل هو (حكيم) بالمعنى الدارج لهذا المفهوم » (٨) . وبعد موته ذاعت المدارس التي تعلم فلسفته ، والتي كانت بمثابة مراكز ثقافية حاملة للواء الحضارة الصينية .

لقد سادت الكونفوشية في النهاية ، على الرغم من أن نزعته مثالية جامدة متزمتة ، ومن أن تيارات أخرى كالتاوية والمدرسة القانونية قاومتها . وحين أمر الملك

The Analects of Confucius, Introduction by : (٨)
A. Waley, p. 13.

شى - هوانج - دى باحراق كتب كونفوشيوس ، جعلها
هذا كتبا مقدسة يستشهد الناس للحفاظ عليها . على
العموم ، اعتلى العرش فيما بعد - فى القرن الثانى قبل
الميلاد - تاى دز ونج ، فأمر بتشييد هيكل لكونفوشيوس
فى كل مدينة وأن تقرب له القرابين (٩) . فنشأ فى هذا
العصر اتجاهها كونفوشيا قويا ، انكب على حفظ فلسفته
وتفسيرها ، لتتوالى عبر العصور الشروح والتعليقات
والتفسيرات والتأويلات . وانتشرت معابد الكونفوشية
بطول البلاد وعرضها . لقد أصبحت وكأنها دين الدولة
الرسمى ، ويظل كتاب (المنتخبات) بمثابة انجيلها .

وسبيلنا الآن الى رحلة مع هذا الرجل كونفوشيوس ،
وكتاب (المنتخبات The Analects) أو كما يسمى بالصينية
- « لون يو » Lun Yü (١٠) .

(٩) ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج ٤ : الصين ، ترجمة محمد
بدران ، ص ٦٥-٦٦ .

From : Macgill F.N. & McGreen I.P. (eds.), (١٠)
Masterpieces of World-Philosophy, Harper, New
York, 1950- pp. 5-11.

الصفحات القادمة تحمل ترجمة دقيقة لهذا العرض الجيد لكتاب
(المنتخبات) . مع إضافة عناوين جانبية ، وبعض الهوامش المستفاد
أساساً من نص كتاب المنتخبات ، أو من دراسة آرثر ويلى الممتازة له .
لعناوين والهوامش التى أضفناها تبقى جميعها مزيداً من التوضيح
والإجالة...

هذا الرجل كونفوشيوس :

كان كونفوشيوس ، الذى تعزى اليه جل الأقوال الكائنة فى « المنتخبات » ، سليلا لعائلة ذات نفوذ من دولة « لو » ، وهى فى عصرنا الحاضر المقاطعة الصينية الشرقية « شانتونج » . اسم عائلته « كونج » . أما أسماؤه هو فكانت « تشيو » و « تشونج نى » . وبفضل ما لاقاه من تبجيل ، أصبح يعرف فيما بعد بالاسم « كونج فو - تزو » (*) الذى يعنى الأستاذ المعلم كونج . وحين مولده ، كانت أسرته قد حل بها الفقر وشظف العيش ، ولكن كان يمكنه أن يزدهى بسلالة طويلة من الأسلاف اللامعين . تغطى مسار الأزمنة رجوعا الى ما قبل عهود أسرة تشو الحاكمة . ولعل تاريخ أسرة كونفوشيوس ، بسبب صيته ، أكمل سلاسل النسب فى العالم وأكثرها امتدادا . وإلى أواسط القرن العشرين ، كان ثمة رجل يعيش فى فورموزا ، يدعى كونج - تى - تشينج ، يعرف رسميا بأنه الجيل السابع والسبعون من سلالة كونفوشيوس (١٠) .

(*) اذن (كونفوشيوس) هو النطق اللاتينى للاسم الصينى كونج - فو - تزو . وقد شاع الاسم كونفوشيوس شيوع الثقافة العربية .
Chai & Chai, Confucianism, p. 28.

(١٠) ويقال ان بلدة كونفوشيوس - أى مدينة تشوفو بولاية شانتونج لا يعمرها الآن الا نسله ، أو بالأحرى نسل ابنه الوحيد . ومنهم تّؤريز المالية بحكومة الصين فى منتصف الثلاثينيات .
(ديورانت ، قصة الحضارة ، ص ٤٦)

خرج كونفوشيوس للعمل وهو لا يزال في طور المراهقة ، لأنه كان قد تيتّم في سن مبكرة (دون الثالثة من العمر) . وشغل عددا من الوظائف الصغيرة بالحكومة وفي العمل مع النبلاء . وبفضل سجل خدمته المشرف وتثقيفه لذاته ، سرعان ما اكتسب اعترافا واسعا . فتحلق من حوله الطلاب لتلقى التعليم في الأخلاق والآداب وفن خدمة الحكومة . ولاقى التبجيل خصوصا بسبب معرفته بالطقوس والشعائر القديمة . سار تحت لوائه رجال مختلفو الاهتمامات والأمزجة . وعبر السنين تنامت الأساطير والأقاصيص المتواترة حول تاريخ كونفوشيوس ، ومن ثم تُوّلف تفاصيل سيرة حياته رواية عن حكيم قديم ، لا يمكن أن تكون الا مثيرة وشيقة . فقليل ان كونفوشيوس كان عليه أن يصبر على تلميذ له ضنين للغاية حتى أنه لم يدع معلمه يستعير مظلته ، ونتيجة لهذا بلل المطر كونفوشيوس على الأقل ذات مرة . وتقول الأقصوصة المتواترة أن كونفوشيوس كان عليه أن يداوم على كبح جماح تلميذ ثان له ذى مزاج حاد ورطه وورط أستاذه في مصاعب متكررة . وساد الاعتقاد أن أمام كونفوشيوس مهربا ضيقا لينجو من مزيد ثالث وصلت ردود أفعاله ضد نصائح أستاذه الأخلاقية والتي لا تتوقف أبدا الى حد نية قتله .

وقد قسم كونفوشيوس وقته بين محاضرة طلابه ، وإعداد المواد الاطلاعية لهم ، ومحاولة تعقب رجالات الحكومة لكي يأخذوا بأفكاره . ولئن كان قد فشل في تلك المهمة

الأخيرة ، فانه بالقطع حقق نجاحا ملحوظا جدا في المهمتين الأوليين ، كما يشهد كتابه « المنتخبات » أو ال « لون - يو » وتأثيره اللاحق . ولأن كتاب « المنتخبات » مجموعة أحاديث مسترجعة من الذاكرة سجلها مريدوه وتلامذتهم ، فمن الواضح أن يشار السؤال بشأن دقة عباراته . بالإضافة الى هذا ، نجد أن أسلوب هذه الأحاديث المقرط الايجاز يجعلها عرضة لتأويلات متباينة . على أية حال ، حينما نتمعن في دراسة هذه الأقوال بعناية ، تبرز بجلاء عدة أفكار ناصعة تمثل مفاتيح تفض مغاليق المذهب الكونفوشي .

الجين أساس الأخلاق :

ولعل فكرة الجين (١١) تتبوأ الأهمية العظمى في ذلك

(١١) يقول آرثر ويلي أن كلمة الجين في اللغة الصينية المبكرة تعنى الرجل الحر المنتمى لصلب القبيلة ، كمقابل لوالى القبيلة أو الرعاع الـ min . أن الجين والمن طرفا نقيض . وهذا الأصل البعيد يحصل معه المعنى المطلوب ، فرجال القبيلة الأصلاء يتعاملون معا بشهامة ودمائة وأريحية وإنسانية . ومع تعديل طفيف أصبحت كلمة الجين تعنى الرجل الخير الفاضل بأوسع معانى الكلمة . كما أن هذا المصطلح يرد أكثر من مرة في كتاب الأغاني ، وكنعت للمحب المخلص الكامل الأوصاف .
The Analect of Confucius, Introduction, p. 27.

ويرى ويلي أن لفظة « الخير » good هي الفضل ترجمة تغطي المعنى الواسع للجين في الفلسفة الكونفوشية الذي يرتد في النهاية الى الاخلاص البشرى . Ibid, p. 29.

العنفود المركزى من الأفكار الملموسة فى الفكر الكونفوشى . فالجين أساس فلسفة الأخلاق الكونفوشية ، لأنه يتصدى للعلاقة المثل بين الكائنات البشرية . والدلالة المستخلصة من الأصل الاشتقاقى اللغوى لأبجدية كلمة الجين الصينية تعطينا مفتاحا لهذه الفكرة : فالرموز التى تكون هذه الكلمة تعنى « كائنين بشريين » ، ومن ثم فإنها توحى « بالعلاقة المثل بين أى كائنين بشريين » . يطرح الجين خلق الدماثة والشهامة والانسانية والخيرية ، ثم الأريحية . وهذا المعنى الأخير هو المستعمل عادة لترجمة ذاك المصطلح . جملة القول ، ان الجين هو الفضيلة الكمل لبني البشر ، انه الطريق الأوحده لسلام المجتمع وانسجامه وذاك الذى يعتنق مبدأ الجين سوف يعامل الناس بدماثة وإنسانية ، سوف تسير كل أموره على ما يرام .

وحين يتساءل المريدون عن وجود الجين وعن وظائفه ، يجيب كونفوشيوس مؤكدا على أهمية جعل مبادئ الجين جوانية لتصبح منزعا طبيعيا للإنسان ، ليس فحسب ، بل ويؤكد أيضا على أهمية التعبير عنه بالممارسة اليومية . لقد رام من طلابه أن يمارسوا الاحتشام والشهامة وطهارة

= ان الدراسة المنهجية لفلسفة كونفوشيوس لابد لها من المصانرة على أن الجين أساس الفكر الكونفوشى وعصبه الأخلاقى والسياسى معا . (هالة أبو الفتوح ، المينة الفاضلة عند كونفوشيوس ، ص ٧٧ . ٢٢٣)

السريرة والمثابرة والعطف ، فى كل موضع وأن • وانتهى به الأمر الى تأييد حنو لامتناه ، وذلك حينما أوجز تفسيره الخاص فى صيغة أمر محكم بليخ : أن تمارس الجين معنى أن « تحب الجنس البشرى » كلية • ويؤكد كونفوشيوس أكثر ما يؤكد على أن الجين ليس تجريدا ميتافيزيقيا مترفعا يتجاوز حدود ادراك الشخص العادى • بل على العكس ، يصر على أن الجين يقبع قريبا فى متناول كل شخص لكى يفهمه ويدركه • أما الصعوبة – كما رأها كونفوشيوس – فتكمن فى أن ثلة قليلة من البشر قادرة على الصمود طويلا • فحتى من بين مريديه المتميزين ، ذكر كونفوشيوس شخصا واحدا فقط نجح فى ممارسة الجين بثبات •

وحينما يتحدث كونفوشيوس عن أهمية الجين ، يمكن أن نستبين نداء بالجد يدانى وهج الحماسة الدينية • اذ يقر بجلاء لا تخطؤه العين أن الرجال الأخيار يضحون بحيواتهم لكى يتمسكوا بالجين وأنهم لا يمكن أن يتبدلوا عن الجين للنجاة من أية كارثة • وعلى ضوء هذا تصبح مبادئ الجين الكونفوشية أكثر من معايير نسبية للسلوك الاجتماعى المرغوب ، انها تصورات لها مطلق الصديق والحق • بيد أن بذور هاتيك التصورات ، كما يفسرها كونفوشيوس ، لا توجد البتة خارج طبيعة الانسان الأساسية • وإذا كنا لا نجد اطلاقا ما يرشدنا الى بيان ضريح لراى كونفوشيوس فى طبيعة الانسان ، فانه مع هذا يميظ اللثام عن افتراضه أن الانسان يولد بنفس الصورة وأن التعبيرات المباشرة عن

طبيعة الانسان الأصلية تقترب من الجين أكثر كثيرا مما يستطيعه أى تكلف . وثمة شرط واحد لا سواه يصر عليه كونفوشيوس : أى تعبير مباشر عن صميم طبيعة المرء ينبغي ان يكبحه ال « لى » (قواعد اللياقة) كيما يخلص الولاء لمبادئ الجين .

القواعد فى اللى : Li

محكم القول ، ان قواعد اللياقة ، ال « لى » (١٢) - اذ ما أخذت حرفيا - قد تعنى الطقوس والشعائر أو الآداب الاجتماعية والهيئة الجيدة أو الذوق ، لكن من الواضح أن كونفوشيوس يستعمل هذا المصطلح ليعنى به ما هو أكثر كثيرا من مجرد التعبيرات البرانية عن الالتزام الاجتماعى الصورى . وكونفوشيوس بوصفه خبيرا وثقة فى الطقوس والشعائر القديمة ، فضل أن يجعل طلابه ينظرون الى ما وراء الموسيقى والأبهة ، و « أحجار اليشب الكريمة والحرير » والمظاهر الأخرى التى عادة ما تصاحب الطقوس

(١٢) باختصار اللى هو ذلك الحشد الهائل من القيم والأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية التى هى بمثابة ملاط يمسك المجتمع ويحقق مظهره الحضارى وشخصيته الانثربولوجية . ولأن اللى هو المجاملة والخلق الفاضل ، فإنه أيضا توازن الفرد وسعادته . ثم أن اللى - الطقوس - كمبدأ للنظام الاجتماعى ، يمنع الفوضى كما تمنع السدود الفيضان . (ماله ابن الفتوح ، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص ٩٧) .

والشعائر • ويؤكد في « المنتخبات » على ماهية الـ « لى » بوصفه الكيفية التي تميز الانسان والتي بدونها يصبح كالحوانات الضارية سواء بسواء ويندثر المجتمع الانساني من الوجود • وأيضا يخبر كونفوشيوس نجله بأن يدرس الى ، لأن الانسان الذي لا يعرف الى لا يعرف كيف يتصرف كإنسان •

هكذا يرتفع الى بوصفه دليلا على مدنية الانسان • ان الى شيء جوهري للحياة المصقولة والمتشقة والمنظمة ، والتي هي الهدف المركزي من تعاليم كونفوشيوس الاجتماعية • وبالى يستطيع الانسان ترويض الوحش الضاري المستكن في أعماقه ، وأن يجعل نفسه عضوا صالحا في المجتمع • وبأكثر من عبارة ، يطرح كونفوشيوس آراءه في الانتفاع السيكولوجي من الى ، لكي يجلب الهدوء والاتزان للإنسان في الأوقات الحرجة • ان الى هو تذكرة كونفوشيوس الطبية لوقاية المجتمع من الفوضى والاضطراب •

ولا يالو كونفوشيوس جهدا لكي يخلف في نفوس تلاميذه انطبعا قويا بأهمية الطقوس والشعائر ، اخلاصا منه لمركزه الذي اختاره لنفسه كحامل لواء ثقافة تقليدية • وهو نفسه ما كان ليأكل اذا لم تقدم الوجبة وترتب المقاعد بالطريقة الملائمة ، وما كان ليترجل اذا ما رافقه ذوو مقام رفيع ، وما كان لينظر أو يستمع أو يتكلم الا اذا تأكد من

أن كل تصرف له كان وفقا لقواعد اللياقة (الى) . والحق
أن أقواله والعبارات الأخرى التي تروى عنه في هذا الكتاب
تعرض لنا رجلا ذا عناية مفرطة بشأن الطرق الملائمة .
ويشعر المرء أن كونفوشيوس كان يعتمد أن يفعل هذا لكي
يصوغ التراث الثقافي لدولته صياغة درامية ، فهي دولة
« لو » الوثيقة الاتصال بأسرة « تشو » الحاكمة (١٣) .
ويتمسك في فلسفته ببقاء مؤسسات تشو التي تمثل في
منظوره السياسي ذلك الماضي الذهبي . وبالطبع يجب أن
نتذكر أن كونفوشيوس يرتفع بالروح والملائمة والاخلاص
الكامنة خلف الطقوس والشعائر فوق الرسميات الشكلية .
انه يوجب طلابه الى ملاحظة البساطة ، لا التباهي المسرف ،
بوصفها المبدأ العام في كل الطقوس والشعائر ، والى أن
يتحققوا من الوجدان الأصيل وراء أية ملاحظة للطقوس
والشعائر ، وليس من مجرد الحضور الفيزيقي للآداب
الاجتماعية . فتبعنا لتعاليم كونفوشيوس تنال روح الى

(١٣) حكمت أسرة تشو فيما بين عامي ١١٢٢ - ٢٥٦ ق م . انسخها
الملك ون ، والفلسفة الكونفوشية تجعل منه ومن دوق تشو أبطالاً عظيماً .
(شيل ، حكمة الصين ، ص ١٧) ، وكما ذكرت في التقديم ، هذه
هي الأسرة التي أسفر تحليلها عن انبعاث حكم الاقطاعيين . ثم لفترة
الدول المتحاربة ، وجاء كونفوشيوس ليجعل نفسه مواصلاً لمسار أسرة
تشو وحافظاً لتراثها ، باعتبارها العهد الذهبي للحضارة الصينية ،
والاخلاقيات . ان مدينة كونفوشيوس تشوفو ، كان مركزاً للثقافة تشو
وسؤدها . وتشو هو آخر الأباطرة الخمسة الصالحين .

فقط حينما يكون الانسان الذى يمارس الى ذا جين .
وها هنا - فى الجين والى - نجد فكرتين هما مفتاح من
مفاتيح الفلسفة الكونفوشية ، تجتمعان معا لتشكلا طائفة
التشن - تزو .

تشن - تزو . . الانسان الماجد : Chün-tzu

وتشن - تزو لا تعنى أصلا أكثر من ابن السيد
الاقطاعى . أما استعمالها الأكثر شمولية ، فقد أكسبها
المعنى الأوسع ، معنى أى انسان « عريق المحتد » . وحين
يرد هذا المصطلح مرارا وتكرارا فى العبارات الكونفوشية ،
لا نجد تأكيدا على عنصر « المحتد العريق » أو الأصل
الطيب للعائلة . ويصبح التشن - تزو ببساطة « الانسان
الفاضل » أو « أفضل البشر » ليتناقض تناقضا متميزا مع
هسياءو - جن ، « الانسان الحقير » أو « الانسان التافه » .
ويمكن أيضا التعبير عن معنى المصطلح فى « المنتخبات »
تعبيرا سديدا بأنه « الانسان الأعلى » . كنقيض « للانسان
الأدنى » .

يرسم كونفوشيوس فى التشن - تزو صورة للانسان
المثالى . وهذا الانسان الكامل ذو فهم شامل للجين وممارسة
دائمة له . انه يتصرف دائما وفقا لى ، وقواعد اللياقة جزء
من طبيعته حتى انه لا يستطيع البتة أن ينتهكها . وتمتزوج
استقامته ، أو التعبيرات عن طبيعته الأصلية امتزاجا تاما
مع القسط المناسب من التهذيب ، بحيث لا يكون مدعيا

متحذلقا ولا فجأ ساذجا • انه يتعامل مع الآخرين بتكلف حميم • نه ارادة فولاذية ومظهره هادى لان الجين فيه يقيه من القلق ، وتحميه حكمته من الحيرة والارتباك ، وتبديد شجاعته أى خوف محتمل (١٤) • وبينما يبحث ذوو العقول النافهة عن الربح ، فان هذا التشن - تزو منشغل دائما بما هو صواب • وقد لا يجوز كثيرا من المعرفة الفنية عن التفاصيل لكن عقله قادر على ادراك ما هو جوهري وذو مغزى • وفوق كل هذا يكتنز التشن - تزو التاو ويبحث عنه •

التاو • الطريق • السبيل : Tao

يختلف التاو الكونفوشى اختلافا شاسعا عن التاو فى التاوية الصوفية (١٥) • يتحدث كونفوشىوس عن تاو الملوك

(١٤) نص الفقرة (٢٨) من الكتاب التاسع : « قال الأستاذ المعلم ذلك الذى هو خير حقا لا يمكن البتة أن يشقى ، وذلك الذى هو حكيم حقا لا يقع أبدا فى الحيرة والارتباك • انه هو الجسور حقا ، والذى لا يهاب شيئا البتة » • (The Analects, p. 144)

(١٥) اكسب كونفوشىوس كلمتى الجين والتشن - تزو قوة مصطلحية كبيرة • أما (التاو) فهو مصطلح ضخم جبار فى الفلسفة الصينية ، والتاوية هى الفلق الايسر المواجه لفلق الكونفوشية الايمن فى تشكيل الفلسفة الصينية • وكونفوشىوس يستعمل مصطلح (التاوية) ببساطة وكما هو مطروح فى التراث الصينى ليعنى الطريق أو الدرب أو السبيل أو النهج أو المنهج المؤدى الى مراد سامق •

الأولين الصالحين ، بما يعنى السبيل الى حكومة مثلى ومجتمع
أمثل ، وعن تاو الإنسان الفاضل بما يعنى السبيل المستقيم
لأن يكون انسانا . ومرات عديدة يعامل كونفوشيوس كلمة
التاو على أنها اسم آخر للاستقامة والحكمة . وكما فعل
كونفوشيوس مع الجين ، يتحدث عن التاو أيضا . بتفجر
طارىء لمشاعر التقوى . ومن ثم نسمعه يعلن : « هذا الذى
يستمتع للتاو فى الصباح يمكنه أن يسلم الروح قانعا فى
المساء » (١٦) . فى هذه الحالات يناهز كونفوشيوس التعبير
عن وقفة دينية .

عالم الروح ولا أدوية كونفوشيوس :

على وجه الاجمال ، يلزم كونفوشيوس صمتا بايغا
بشأن المسائل الفاتكة للطبيعة . وفى « المنتخبات » لا يدافع
عن الأفكار السائدة بشأن عالم الأرواح ولا هو يحاول
تقويضها . وبدلا من هذا وذاك يوجه مريديه توجيهها
لا يحتمل قولين الى أن يكرسوا عقولهم لشئون البشر ،
والا يشغلوا أنفسهم بتساؤلات عن الأرواح . ويخبرهم أنهم
يجب أولا أن يتعلموا ما يكفى عن هذه الحياة قبل أن يبحثوا
فى حياة أخرى بعد ذلك ، وقد بقى هو نفسه طوال حياته
منشغلا بدراسة هذا العالم انشغالا لا يترك له فراغا لمعالجة
مسألة العالم الآخر . وحين يسأله تلميذه عن العلاقة بين

(١٦) هذا هو نص الفقرة الثامنة من الكتاب الرابع .
(The Analects; p. 103)

الطقوس والشعائر وبين الأرواح ، يجيب كونفوشيوس بأنه ما دام الاخلاص هو جوهر الطقوس والشعائر ، وجب على المرء أن يقيم طقوس وشعائر الأضحية لأسلافه « كما لو كانوا حاضرين » ، وللأرواح أيضا « كما لو كانت حاضرة » (١٧) . وكما يقول كونفوشيوس لا ينبغي أن يذهب المرء الى ما وراء هذا . فيكفى « أن نحترم الأرواح ، ثم ننصرف بعيدا عنها » .

وقد يملكننا شيء من التعجب بشأن أحد مريديه الذي أعلن عن خيبة أمله حين حاول أن يتعلم شروح كونفوشيوس « لسبل السماء » (١٨) . وربما تحوم الشبهات حول كونفوشيوس بأنه يراوغ في هذا المبحث ، ويمكن أيضا التشكك في أنه ذو أفكار مصوغة بشأن الأرواح ، ولكن لا يمكن اتهامه بالصمت التام عن البحث في السماء . فثمة فقرات عديدة في هذا الكتاب يشير فيها كونفوشيوس الى السماء ، أحيانا بوصفها قوة أخلاقية لا تقهر ، وأحيانا أخرى بوصفها كيانا فائقا مفعما بالارادة والغائية .

(١٧) في الفقرة ١٢ من الكتاب الثالث يسأل الأستاذ المعلم عن معنى القول : أن المرء يجب أن يقدم الأضحية للأرواح كما لو كانت حاضرة فأجاب : إذا لم تكن حاضرا حين تقديم الأضحية لي ، فكأنه لم يكن ثمة أضحية .
The Analects, p. 97.

(١٨) في الفقرة الثانية عشر ، من الكتاب العاشر اقرار صريح بأن الأستاذ المعلم لا يخبرنا بشيء البتة عن طبيعة الانسان أو عن سبل السماء .
(The Analects, p. 110).

السماء - الألوهية . . لم ؟ :

ان السمااء عند كونفوشيوس هي الكيان الفائق الذي يحسم الأمور لصالح الأخلاق والحق ، ويتصور كونفوشيوس نفسه وكأن السلطة السماوية قد فوضته لكي يديم طريق الملك الحكيم على الأرض . ولذلك ، حين يهدد شعب كوانج حياة كونفوشيوس ، فانه يعلن : « اذا لم تعترم السمااء أن تجعل هذه الحضارة تبيد ، فما الذي يمكن أن يفعله شعب كوانج في ؟ » . وحين تتأزم الأمور في آونة أخيرة ، يواسي كونفوشيوس أصدقاءه قائلا : « لقد خلقت السمااء هذه الفضيلة في أعطافى ، فما الذي يمكن أن يفعله هوان توى في ؟ » . أما أن كونفوشيوس يرى مشيئة السبماء دائما في صالح الخير ، ودائما تؤدي الى الربح الوفير ، فان هذا يظهر بوضوح أكثر في عبارته بشأن اطراد الفصول وازدهار العديد الجم من المخلوقات . كثيرون من طلاب الكونفوشية اتخذوا من هذه العبارة برهانا على اعتقاد كونفوشيوس في تلقائية قوة أخلاقية كونية قادرة على كل شيء . ربما كان هذا الرأي صائبا ، ولكن اذا حكمنا عن طريق . أغلب . اشارات كونفوشيوس المتعلقة بالسمااء ، لوجدنا أن ثقل العبارة السالفة الذكر يظل منصرفا الى وصف السمااء بأنها قوة محيية تعمل بأريحية بغير « تفسيرات محكمة » .

القدر .. المينج : Ming

١٩ "تاو السماء بالمصطلحات الكونفوشية هو سبيل السماء أو مشيئة السماء . وهذه المشيئة فائقة تعلو على تدخل الانسان (١٩) . وإذا كان استعمال كونفوشيوس لمصطلح السماء على تمام الاتساق ، فإن مشيئة السماء أيضا لامندوحة عن أن تكون أخلاقية وفي صالح الخير . وها هنا يتقدم مصطلح كونفوشي آخر ، انه المينج . وقد يعنى المينج اما أمرا واما قدرا . فحينما يظهر مرتبطا بالسماء أى كـ « مينج السماء » ، فإنه يعنى عادة أمر السماء ، أو مشيئة السماء . أما حين يظهر المينج منفردا ، فإنه قد يعنى القدر أو المصير . وما يجعل موقف كونفوشيوس من مشيئة السماء غامضا ، انما هو عبارته القائلة : « اذا كان للسبيل (التاو) أن يسود ، فإن هذا قدر (مينج) ، أما اذا كان للسبيل أن يفشل ، فإن هذا أيضا قدر (مينج) . فاذا كان هذا المينج هو ذاته المينج الذى يعنى مشيئة السماء ، فإن السماء حينئذ لن تنوى دائما أن تجعل السبيل العظيم يسود . وهذه الفكرة هي ما تفهم عموما بأنها الجبرية الكونفوشية (٢٠) .

(١٩) يقول كونفوشيوس : « الذى لا يفهم مشيئة السماء لا يكون ابدا انسانا حاجدا » .
(The Analects, p. 233)

(٢٠) نص الفقرة الأولى من الكتاب التاسع : « نادرا ما تحدث الأستاذ المعلم عن الربيع أو المصير أو الخيرية ، ويعقب عليها آرثر ويلز

بعبارة أخرى ، القدر يظهر أيضا في الفكر الكونفوشي.
يوصفه ضرورة مبهم ، خارج ادراك بنى البشر ، وخارج
تحكمهم .

خلق البثوة :

وقيل في « المختارات » ما يكفي لاضاءة بعض المثل
الكونفوشية الأخرى التي تتعلق بالمؤسسات الاجتماعية
والسياسية . فحينما ينبه كونفوشيوس طلابه لممارسة
طاعة الوالدين داخل الأسرة قبل أن يتعلموا كيف يقرأون
ويكتبون جيدا ، فمن الواضح أن هذا ينطوي بداهة على
أهمية الأسرة بوصفها صورة مصغرة للمجتمع . وعلى أية
حال ، فكما نرى في « المنتخبات » مغزى طاعة الأبناء
للوالدين في المذهب الكونفوشي ليست بالأهمية التي يعم
الاعتقاد فيها . فكونفوشيوس يصف هذه الفضيلة في
كتابه بأنها هامة لأنه ليس من المحتمل أن ينتهك قانون

في الهامش بأن كونفوشيوس لا يتحدث عن الأمر من زاوية المردود
المالى الأوفر - كما ورد في مواضع من النص أعلاه . أما موضوعنا
الآن فهو النقطة الثانية : البصير ، وكما يقول ويلز ، لم يناقش
كونفوشيوس شمولية الحتمية السماوية أو الكونية لكل الأفعال
الانسانية وهي القضية التي طرحها مدرسن موتزو في مرحلة أسبق
وكانت مثارة في عصر كونفوشيوس . أما الأخيرة فانه لم يعرفها لأي
من معاصريه . Ibid. p. 138.

المجتمع ونظامه ذلك الانسان الذى يحترم والديه وايضا لأن امتنان المرء تجاه والديه عاطفة خيره يجب تشجيعها . ولكن ليس قصد كونفوشيوس فى هذا الكتاب أن يرفع طاعة الأبناء الى مصاف الفضيلة الانسانية العليا (٢١) ، والأحرى أن هذا تطور لاحق فى المدرسة الكونفوشية ، توسع فيه المعلقون الكونفوشيون على هذه النصوص ، وأعادوا تأويلها . أما كونفوشيوس نفسه فلا ينصح المرء بالطاعة المطلقة العمياء للوالدين انه يرى الفضيلة فى الابن الذى يحب والده سارق الغنم ، بيد أنه أيضا يعلم الابن أن يعترض على والده الخاطيء بلطف ، لكن باصرار (٢٢) .

(٢١) بر الأبناء بالوالدين وطاعتها ، أو تقوى البنوة ، تشغل فقرات كثيرة متناثرة فى « المنتخبات » ، فى الفقرة الخامسة من الكتاب الثانى سأل منج تزو الأستاذ المعلم عن معاملة الوالدين ، فأجابه بالاحتياط ، ولما يحين أجلهما ويقدم لهما الأضحية ، طبقا للطقوس والشعائر (The Analects, p. 88-89) . الفقرات التالية - السادسة والسابعة والثامنة من الكتاب الثانى تحمل نفس المضمون . لكن ثمة فقرات أخرى فى « المنتخبات » تحمل استقراكا ، سوف أتناقشه فى الهامش التالى .

(٢٢) تحمل الفقرة (١٨) من الكتاب الرابع مثل هذا المضمون ، لكن كونفوشيوس يستأنفها قائلا : « اذا فشل فى تغيير رأى والديه الخاطيء ، عليه أن يتمسك باتجاه مخالف لهما ، بغير أن يعارضهما ، قد يشعر بالشجاعة تخونه ، لكن لن يشعر بامتعاض أبدا » .
The Analects, p. 105.

فلسفة التربية والتعليم :

كان كونفوشيوس بوصفه مربيا يجد في تعليم طلابه على قدم المساواة ، بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية وأصولهم العائلية . فقد آمن بقدرة البشر المتساوية على التعلم ، بيد أنه يعترف بالتفاوت بينهم في العقل والموهنة . وفي « المنتخبات » يتقبل أولئك الذين ولدوا وهم ذوو معرفة ، على أنهم الأفضل ، وأولئك الذين يتعلمون بعد دراسة اجتهدية على أنهم النمط الثاني من العقل . ولا يقترح كونفوشيوس أبدا في أى موضع من هذا الكتاب أن كل شخص ولد على قدم المساواة الاجتماعية ومؤهل للحق في أن يحكم نفسه . وهو يستحث الحاكم على أن يتعلم السبيل القويم للحكم ، ويستحث طلابه على أن يتعلموا كيف يكونون وزراء كأفضل ما يمكن كي يساعدها الحاكم ومؤدى نظرية كونفوشيوس لوظيفة الحكومة أنها يجب أن تحكم عن طريق الامتياز الأخلاقي . وهي نظرية ترهص بمجمل فلسفة منشيوس السياسية .

ان ملاحظة كونفوشيوس بشأن البشر الذين « يولدون مزودين بمعرفة » لملاحظة مثيرة الى حد بعيد ، بيد أن « المنتخبات » لسوء الحظ لا تعطى أى بيان واف لنظرية كونفوشيوس في المعرفة . وفي مناقشة كيفية الدراسة يعترف كونفوشيوس باعتزازه « أن يلاحظ وأن يستودع الذاكرة ما قد لوحظ » لأنه يقر « بعجزه عن فعل

أى شيء بغير أن يعرف عنه أولاً ، • وحين نفحص هذه الأقوال
معاً ، نجد أن كونفوشيوس ينوه الى امكانية أن يولد
بعض البشر مزودين بمعرفة ، ومن ثم يستطيع هؤلاء أن
يتصرفوا تلقائياً بغير بذل الجهد لتعلم كيفية التصرف ،
وبغير أن يكونوا على وعى بمعرفتهم • بيد أن كونفوشيوس
يتجنب بحذر رفقة أولئك البشر المزودين بمثل هذه
العقلية الفائقة ، ويعترف بأن مصدر معرفته هو الملاحظة
والدراسة المكثفة • ويستبعد أيضاً بلوغ العرفان من
خلال التأمل بلا استعانة يكتب (٢٣) ، لأنه حين « يحاول
أن يفكر طوال النهار بغير أن يأكل وطوال الليل بغير أن
ينام ، فلن ينتهى من هذا الى شيء » • فضلاً عن ذلك ،
لا يفصل كونفوشيوس بلوغ العرفان عن التصرف
والممارسة •

فى فلسفة الاسم :

وفقاً لتعاليم كونفوشيوس ، المطابقة الدقيقة بين
الاسم والواقع أكثر أهمية من تلك العلاقة بين التصرف
والمعرفة • لقد كان العهد آوان فوضى اضطرب فيه النظام
الاجتماعى • لذلك استحث كونفوشيوس الملك على أن

(٢٣) الانسان عند كونفوشيوس لا يخلج أبداً من طلب المعرفة •
يقول : « لو أعطيتنى خمسين عاماً لانفقتها فى الدرس » •
The Analects, p. 126.

يسلك سلوك الملوك ، والوزير على أن يتصرف كما ينبغي
أن يتصرف رجل في مكانته السامية . اذ يقول
كونفوشيوس ان الاسم اذا لم ينطبق انطباقا سليما فان
اللغة لن تعود وسيطا للتواصل . ونتيجة لهذا لا يمكن
بلوغ شيء ، ولن يعرف البشر حتى أين « يضعون أيديهم
أو أقدامهم » (*) . وهذا المبدأ الكونفوشي ، مبدأ تصحيح
وتدقيق الأسماء ، البادئ من منطلق أخلاقي والمتجه بشرط
هدف عملي ، قد تطور الى جهد دؤوب لتعريف المصطلحات .
ان اهتمام كونفوشيوس بهذه المسألة يميظ اللثام عن
افتراضيه الكامن خلف هذا الاهتمام ، أي افتراض أن
الاسم ليس محض تمثيل لشيء ، بل انه صميم ماهية
الشيء ذاته . يمكن أن نجد نواة هذه الفكرة في الفكر
السابق على كونفوشيوس في عصور الصين الموعلة في
القدم ، بيد أن جهود كونفوشيوس قد أضافت المغزى لهذه
الفكرة ، وجعلتها تطورا هاما في الفلسفة الصينية .

ختام : نظرة شاملة للكتاب وللرجل :

وعبر القرون يبقى كتاب « المنتخبات » ، على الرغم
من ايجازه وحجمه المحدود ، أكثر المصادر صحة ومغنية
لدراسة كونفوشيوس ، الرجل وفكره . فضلا عن
الأفكار التي تمثل مفاتيح المذهب الكونفوشي الأصلي ،

(*) لعل كونفوشيوس بهذا يرمض بفلسفة اللغة وسيمانطيقية
الألفاظ ، وهذا ما ساد الاهتمام به لفلسفة القرن العشرين .

يلقى الكتاب أيضا الضوء على جوانب معينة من الحياة في الصين القديمة . ان شذرات الأحاديث الدائرة بين كونفوشيوس وبعض من القادة السياسيين ، تكشف عن الدور الذى لعبه المفكرون فى مجتمع خضعت فيه القيم لتغير كان دراميا . وتكشف هذه الأحاديث أيضا عن كيفية تنافس الدول تنافسا منطلقا لاتحده أية قيود من أجل التفوق فى صولة النضال التى تلت انهيار النظام الاقطاعى العتيق (**).

أما الحقيقة الباقالة ان بعض العبارات التى تمثل مفاتيح فى « المنتخبات » قد أولها المؤلفون بطرق متباينة ، فانها قطعاً أدلت بدلوها فى بقاء المذهب الكونفوشى على قيد الحياة . وكل شخص ، من أكثر المجددين تحورا الى أكثر المحافظين تشددا ، اذا ما بحث بحثا دؤوبا فى هذا الكتاب ، سيجد به شيئا لصالحه . والخق أن الكثير قد جرى ارجاعه الى التعاليم الكونفوشية ، وكنتيجة لهذا تشوهت تعاليم كونفوشيوس الفعلية . وعلى الرغم من تباين التأويلات ، فانه من الأهمية بمكان ملاحظة أن كونفوشيوس قد رفع قيمة المجتمع المنتظم والأمن والمنسجم الى أعلى حد . ووجه كل تفكيره وتعليمه منسوب هذا الهدف . وكان تاو كونفوشيوس سبيلا لتحقيق هذا

(**) المقصود الحقبة التى اشرت اليها فى التصدير عن حضارة الصين ، أى حقبة الدول المتحاربة التى تلت انهيار النظام الاقطاعى .

المثال • أما « تي » (الفضيلة) (٢٤) عنده فكانت دعواه بأنه منذور للمعرفة بالسبيل ، أما « ون » كونفوشيوس (تنقيته للتراث الثقافي) ، فمعنى بتراث المؤسسات السائدة في ماضٍ ذهبي خيالي مستقى من النصوص العتيقة (*) .

ولنكن على ثقة من أن كونفوشيوس أكد على أن المجتمع لن ينعم بالسلام ما لم يسلك كل فرد من أفراده بالصورة الملائمة ، وفقا لوضعه الاجتماعي • وهذا يعني أن الفرد عند كونفوشيوس ذو أهمية ، ولكن فقط على قدر ما يستطيع أن يساعد في جلب السلام والانسجام في المجتمع • وليس ثمة دليل كاف في هذا الكتاب على ما إذا كان كونفوشيوس قد تأمل وضع الإنسان في الكون ، أو تناول مسائل ميتافيزيقية أخرى •

(٢٤) Te معناها الفضيلة. لكن ليست كمقابلة للخطيئة ، بل الأخرى الفضيلة بمعنى الفضل • مثلا فضيلة أو فضل الدواء أو الشيء أو الشخص . أنها أقرب الى سمات الشخصية منها الى التقييم الأخلاقي للسلوك •

The Analects, Introd. by A. waley, p. 33.

(*) المقصود الأباطرة الخمسة الأولين الصالحين . أيضا الذين ذكرتهم في التصدير •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٨٦٨٩

ISBN — 977 — 01 — 4109 — 7

مكتبة الأمانة



بسعر رمزي عشرة قروش
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

الهيئة المصرية

P
11
899

